أسأت وأحسنت

ودخل على أبي العشائر وعنده رجل ينشده شعراً في بركة في داره فقال:

[المتقارب]

لَـئِـنْ كـانَ أحْـسَـنَ فـي وَصْـفِـهَـا
لَـقَـدْ تَـرَكَ الْـحُـسْـنَ فـي الْـوصْـفِ لَـكْ[١]
لأنَّـكَ بَـحْـرٌ وَإنَّ الْـبِـحَـارَ
لَـتَـأنَـفُ مِـنْ مَـدْحِ هَـذِي الْـبِـرَكْ[٢]
كَـأنَّـكَ سَـيْـفُـكَ لا مَـا مَـلَـكْـ
ـتَ يَـبْـقَـى لَـدَيْـكَ وَلَا مَـا مَـلَـكْ[٣]
فَـأكْـثَـرُ مِـنْ جَـرْيِـهَـا مَـا وَهَـبْـتَ
وَأكْـثَـرُ مِـنْ مَـائِـهَـا مَـا سَـفَـكْ[٤]
أَسَـأْتَ وَأَحْـسَـنْـتَ عَـنْ قُـدْرَةٍ
وَدُرْتَ عَـلَـى الـنَّـاسِ دَوْرَ الْـفَـلَـكْ[٥]

= حاثًّا إياه على مغادرة المكان، وقد سكر فأخذ منه السكر كل مأخذه، قائلاً له: لقد حصلت على التكريم اللائق بك وعليك أن تغادر إلى بيتك، فإن لم تفعل، فسيأتي إليك بيتك شوقاً إليك وحبًّا.

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن الشاعر الذي بين يديه قد أجاد وأحسن وصف البركة في صحن دار الأمير، ولكنه لم يأتِ على مدح الأمير بما يستحقّه من مدح، فلم يصفه ويتغنَّ بأوصافه، إنه بحر كريم ومن طبيعة البحار أنها لا تتنازل لتتساوى بالبرك مهما عظمت، فإنها تبقى بركاً لا تزيد ولا تنقص.

(٣) و (٤) يصف الشاعر أبا العشائر بأنه كريم يُنفق ما لديه من مال، وهو بطل شجاع، فسيفه يملك أيضاً فإذا به يسفك دماء الأعداء. ثم يُقارن الشاعر ما في البركة من ماء بما يتمتّع به ممدوحه؛ فكرمه يسيل دافقاً أكثر ممَّا يرفد البركة من ماء، وكذلك فسيفه يهرق دماء أكثر من ماء تلك البركة، فتكون غلبة التفوّق للممدوح على البركة.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه على أنه مصدر الخير كلّه لأصحابه وأحبابه، وهو مصدر الشرّ كله لأعدائه فيعمّهم ضرره، فكأنه نجم سعد على أصحابه وكأنه فلك نحس على أعدائه.